المحاضرة الثَّالثة: ماهية القصَّة

القصَّة شكل من الأشكال الأدبية النَّثرية، خاصِّيتها أنَّها تركِّز على جزئية حياتية تضعها ضمن حدث أو حوادث، يميِّزها طابع الصِّراع الذي غالبا ما يكون مستلًّا من الواقع ومعاد صياغته بهدف التَّعبير عن تجربة إنسانية بطريقة موجزة ومركَّزة (1) ويقوم البناء في القصَّة على أوجه متعدِّدة كأن يبدأ من المقدِّمة ليصل إلى العقدة ثمَّ النِّهاية أو الحل أو أنَّه يقف بداية عند العقدة ليعود نحو الماضي ليقصَّ الحدث وقد يذهب مذهبا آخر وهو أن يجعل من النِّهاية بداية العمل قبل التَّوجُّه إلى الماضي وبدء الحكي أو السَّرد (2) وكلُّ هذه الأبنية تتمُّ من خلال عناصر مهمَّة تربط أجزاء القصَّة، بحيث تظهر معقولة ومقنعة ومن هذه العناصر السَّرد الذي يكون بطريقتين غفلا باستخدام ضمير الغائب أو عقلا باستظهار ضمير الغائب.

ويتنوَّع السَّرد بين المفرد وهو أن يحكي السَّارد حادثة معيَّنة مرَّة واحدة طيلة العمل والسَّرد المكرَّر وهو أن تتكرَّر الإحالة على حدث بعينه أكثر من مرَّة. (3)

ومن العناصر أيضا الشَّخصيات تلك الكائنات الورقية التي تترك في عالم متخيَّل مأخوذ من الواقع ولكنَّه لا علاقة له به حركة وكينونة وصورة، وبالتَّالي تأتي الشَّخصية الواحدة حاملة لسمات شخصيات كثيرة تعيش الواقع أو الرَّاهن، فهي من هذا المنطلق كائن يتحرَّك مثل الشَّخص الحقيقي دون أن يكوِّنه فعلا. (4)

وتتنوَّع الشَّخصية حسب طبيعتها فقد تكون رئيسية أو ثانوية وقد تكون متحرِّكة أو ثابتة.

1. **الرَّئيسية:** يتوقَّف عليها فهم الرِّسالة المراد إيصالها من خلال العمل لها إمكانات مختلفة على الإدهاش والمفاجأة والإيهام الإقناعي. (5)
2. **الثَّانوية:** لها تأثير هي الأخرى في تنامي الأحداث القصصية ولكن وجودها يبقى دائما مرهونا بالشَّخصية الرَّئيسية فهي مساعد لها وتابع ولكن مهمَّة من حيث أنَّها تكميلية. (6)
3. **الثَّابتة أو المسطَّحة:** تظهر واضحة من خلال عملية الوصف لمجموع ملامحها وقسماتها ممَّا تجعل القارئ يتذكَّرها وتظلُّ على حالها من بداية النَّصِّ إلى نهايته. (7) ولكن ما يصدر عنها من فعل وقول وحركة يجعل بعض الزَّوايا المخفية في العمل تظهر تباعا.
4. **النَّامية:** هي التي تتَّضح خصوصيتها بشكل تدريجي، بحيث تبدأ غامضة ومع تنامي سياق الأحداث تتجلَّى في خضمِّ المفاجئة. كما أنَّها غالبا لا تستقرُّ على حال.

الحوار: هو ذاك الشَّكل التَّواصلي الذي تضطلع به الشَّخصيات من خلال عملية الإرسال والتَّلقِّي، بحيث يكون الإفصاح عن الأفكار والتَّوجُّهات النَّفسية والاجتماعية وغيرها ويعمل الحوار أيضا على تقليص مساحة السَّرد الذي إذا تجاوز حدًّا معيَّنا أصبح مملًّا وجنى على المتن الإبداعي. (8) ويذهب الحوار ضمن اتِّجاهين:

1. **خارجي:** وهو حوار الشَّخصيات فيما بينها مشهديا ومباشرا ومسموعا.
2. **داخلي:** حوار الشَّخصية مع نفسها أو ذاتها يكون صامتا ولكنَّه يعمل على تركيز الأحداث وجمعها.

الزَّمكانية: مصطلح تمَّ تشكيله من خلال عنصري الزَّمن والمكان، بحيث لا يمكن أن يكون مسلوبا من المكان أو العكس، لا يمكن تصوُّر الملفوظات أو الكتابة بعيدا عن الأنظمة الزَّمكانية.

الزَّمن: في العمل القصصي نظام مرتبط بوجود الشَّخصية وحركتها التي تختاره، بل وتفرضه ليدار الحاضر من خلال الماضي أو المستقبل من خلال الحاضر، والزَّمن يصبح بدون معنى ما لم يتعلَّق بالبعد الحركي في جانبيه المادِّي والنَّفسي.

المكان: هو الفضاء أو الفراغ الذي تستغلُّه الشَّخصيات ويتَّسع المكان ليحتضن أنواع الصِّراع في العمل الإبداعي، فهو عنصر فاعل ومفعول به يتمازج مع الحركة والأفكار والطَّبائع والسُّلوكات ليكوِّن خلاصة تفاعلية. والأمكنة قد توصف بالمعادية والمغلقة والمفتوحة والمعيشة.

ومن هنا فلا يمكن للزَّمن إلَّا أن يكون في علاقة مع المكان.

الحبكة: هو مصطلح يقف عند مدى توافق أجزاء العمل القصصي في ترابط أحداثها وتواليها في أجواء تشويقية وفق البرنامج القصصي أو المخطَّط الذي يفضي إلى النِّهاية أو الخاتمة.

العقدة أو لحظة التَّأزُّم: تتشابك فيها الأحداث وتعلو لتصل إلى درجة الذِّروة ملتمسة لحظة التَّنوير أو الانفراج.

النِّهاية: هي خاتمة العمل الإبداعي القصصي وتكون إمَّا مغلقة يضعها المبدع أو مفتوحة وهي الطَّريقة التي يجعل بها المبدع القارئ يشاركها إبداعه.

ولتوضيح الجانب النَّظري السَّابق يحتاج منَّا الأمر إلى الوقوف على بعض النَّماذج القصصية الجزائرية.

تكون البداية مع "غزالة زهرة" الكاتبة القاصَّة الجزائرية التي تكتب بعيدا عن الصَّخب الإعلاني والضَّوضاء والبهرجة الإعلامية في مجموعتها القصصية "التَّوغُّل في أعماق المتاهة" (9) تعرض لعدد من القصص: الدوامة، في قفص الاتِّهام، الصَّدمة، خيبة أمل، المحاولة الفاشلة وغيرها، وستكون قصَّة "في قفص الاتَّهام" التي امتدَّت على مساحة 6 صفحات هي مجال دراستنا.

فكرة مضمون القصَّة ليست بالفلسفية العميقة ولا بالوجودية المحيِّرة ولا بالسِّياسية المبهمة وإنَّما هي كشف عن همٍّ ذاتي بمسحة من الألم والتَّشاؤم هي حالة زوج ينتابه وساوس يقول له بل ويقنعه بأنَّ زوجته تخونه ويتولَّد عنده هذا الشَّك بعدما أخبره أحد أصدقائه بأنَّه على علاقة بامرأة متزوِّجة وبأنَّه يلتقيها خلسة عن زوجها منذ شهور وبأنَّ اسمها كريمة، ركَّز الزَّوج على الاسم الذي يطابق اسم زوجته ليدخل بعدها في دوَّامة من الغيرة والاكتئاب وساءت حالته وبدأ يفكِّر في التَّخلُّص منها بقتلها إلى أن تظهر الحقيقة في آخر القصَّة

ويندم الزَّوج ويطلب الصَّفح من زوجته التي بقيت لا تعرف شيئا ومندهشة من معاملة زوجها التي أصبحت فظَّة اتِّجاهها واتِّجاه ابنهما.

الشَّخصيات: في العمل القصصي عموما يجيء عدد الشَّخصيات قليل بالمقارنة مع المتن الرِّوائي ذلك أنَّ حيِّز القصَّة ضيِّق بحكم صفة التَّركيز التي هي من خاصيات الفنّ القصصي.

وفي هذه القصَّة لم يتجاوز عدد الشَّخصيات، 6 شخصيات.

وكان لشخصية الزَّوج الحظَّ الكبير في الهيمنة على مجريات العمل، الزَّوج، الزّوج كريمة، الابن عمر، الصَّديق أكرم.

الحوار: جاء أغلبه داخليا مرتبطا بشخصية الزَّوج وثورة أحاسيسه المهيمن عليها الشَّك والاتِّهام والرَّغبة في الانتقام من الزَّوجة، سأقتلها نعم سأقتلها، سأمزِّقها إربا إربا وأرميها في إهمال لكلاب المدينة المتوحِّشة، سأنهي حياتها بيدي وأرتاح، إنَّها أفعى تسمِّم حياتي، تطعن كرامتي، سأقتلها ولن أترك أيَّ أثر يفضح جريمتي وسأنعم لحظنها بالهدوء. (10)

الحوار الخارجي: الذي كان مشحونا بالغضب والكره من الزَّوج، أغربي عن وجهي أغربي عن وجهي وهو يخاطب زوجته (11)

النِّهاية: جاءت مريحة أنهت الصِّراع والتَّشنُّج الذي ساد معظم القصَّة إنَّ بعض الظنِّ إثم. (12)

أمَّا "مرزاق بقطاش" القاصُّ والرِّوائي الجزائري فإنَّه يسرد علينا أكثر من قصَّة في مجموعته القصصية "آخر القعدات، قبلة عائشة، خطوات على الرَّصيف البحري، فاطمة وآخر القعدات التي سنقف عندها.

القصَّة: تسرد حياة صديقين حمود وَ أمقران، حمود الذي فقد والده في شجار مع الجيران منظر أبيه المقتول السَّابح في دمائه لا يريد أن يبرح مخيِّلته، بعدها يفقد أمَّه التي أصيبت بالسكَّري بعد وفاة أبيه أوجد لنفسه هواية وهي تربية الطُّيور الحساسين والكناريا، فأصبح يعرف أصواتها وأكلها ويستطيع تمييز ذكورها عن إناثها بمجرَّد النَّظر إلى أجنحتها، بل ويحدِّد بنفس هذه الطَّريقة حتَّى أعمارها عارف بالموسيقى الأندلسية ومتذوِّق لها أحبَّ معلِّمة الرِّياضيات الفرنسية، وعندما غادرت البلاد شعر بحزن ووحدة شديدين، وظلَّ ساهما مكتئبا مدَّة طويلة، لم يتزوَّج أصيب بمرض لم يستدل عليه حتَّى بالتَّحاليل المختلفة، الطَّبيب أفهمه أنَّ مرضه في الكبد تطوَّر مرضه واشتدَّ هزاله ولم يعد جسده يقوى على حمله فراح يستعين بعصا ويتوفَّى نتيجة المرض ويحسُّ صديقه أمقران بدنو أجله فيصطحبه إلى بيته ويقضيا وقتا مع الطُّيور والأزهار والأشجار، أمقران هو الآخر يحترف نفس هواية صديقه وبعد أن تغادر حمود بيت صديقه يغادر الحياة بعد أيام قليلة يوم وفاته، يدخل أمقران بيت حمود ويطلق سراح كلَّ العصافير والحساسين التي كانت في الأقفاص ليقول: لقد تحرَّر حمود وتحرَّرت معه الحساسين.

أمقران: جاوز الأربعين ولم يتزوَّج هو الآخر، دخل السِّجن وعمره 17 سنة بعد أن أقدم على قتل شرطي فرنسي، يحبُّ الأسماك والطُّيور والأشجار ونمت بينه وبينهم ألفة جميلة

وغريبة، يعشق طائر الكوندر الذي يستوطن أمريكا الجنوبية... عَوَضَ حياة الأسرة والأولاد بالاعتناء بتلك المخلوقات التي وجد فيها الأنيس والصَّديق.

الزَّمكانية: أحداث القصَّة تعبر من زمن الاستعمار إلى زمن الاستقلال بسلاسة كبيرة، تعود إلى الماضي ثمَّ ترجع إلى الحاضر دون أن يحسَّ القارئ بهذا الانتقال وفي بعض الحالات تتمازج الأزمنة فتصبح زمنا واحدا المكان منطقة القصبة في أعالي الجزائر العاصمة منطقة تاريخية عاشت اختلاف الحضارات وتنوُّعها.

الرَّاوي: كان غفلا واضطلع بتصوير الشَّخصيات والأمكنة والزَّمن رسم الدَّواخل النَّفسية للشَّخصيات معرِّجا على ماضيها وتاريخه وانتمائها الاجتماعي، تحدَّث بلسانها ولكن كلُّ هذا بلغة سليمة جميلة تقترب كثيرا من الشَّاعرية.

أمَّا المجموعة القصصية: "كلمات تحت الشَّمس" (15) التي وقَّعتها صاحبتها باسم مستعار زهرة الرِّيف فقد ضمَّنتها عددا من القصص: صورة الغياب، اللِّقاء الأخير، التَّواصل، طوق من فراغ، خلف السِّتار، كلمات تحت الشَّمس التي سنقف عندها.

هي حكاية صحفي أغلقت الجريدة التي كان يشتغل فيها فوجد نفسه وزملاءه في بطالة فرضت على كلِّ واحد منهم أن يجد لنفسه مصدر رزق أخر وتشتُّت الجمع فغادر الوطن من غادر وبقي من بقي.

الشَّخصيات: اصطبغت كلُّها بمسحة من الألم والأسف والقنوط والإحساس بالضَّياع وقلَّة الحيلة.

فاتح: رحل إلى كندا علَّه يجد لنفسه مكانا ويصنع لذاته اسما.

يوسف: كانت وجهته نحو الخليج ممنيا نفسه بإيجاد الشَّيء الذي ضيَّعه هنا.

سميرة: تقبل على مضض بزوج اختارته لها أختها المقيمة في فرنسا فتسافر لتلتقي برجل لا تعرف عنه شيئا تقاسمه الحياة التي لم تفكِّر كيف ستكون.

مدير الجريدة: الذي جمع طاقمه العمَّالي من صحفيين وغيرهم ليبلغهم أنَّ الجريدة حكم عليها بالغلق بقرار فوقي وبأنَّه لا يملك أيَّة سلطة لإبطال القرار وحتَّى يخفِّف من قوَّة الصَّدمة على مجموع العمَّال استدرك بألم، قد تعود الجريدة باسم آخر. (16)

شخصية الصُّحفي راوي القصَّة لم تمنحه القاصَّة اسما هو الوحيد الذي بقي في الوطن بعد هروب الآخرين.

نقل أفكاره من الجريدة المغلقة إلى الجدران وصار يكتب جدارياته وسرعان ما انضمَّ إليه شباب كثير وجدوا في جدران المدينة متَّسعا لأفكارهم ووجهات نظركم السِّياسية والإنسانية وغيرها.

أحبَّ سميرة زميلته ولم يصارحها بذلك، عندما سافرت بكى، حالته التَّعيسة هو ابن الشَّهيد الذي لم يظفر حتَّى بسكن لائق يعيش فيه رفقة أمِّه، بكى الأسرة التي لم يستطع أن يؤسِّسها وبكى الأطفال الذين لم ينجب.

الأمُّ زوجة الشَّهيد: لم تأخذ ما أخذه غيرها من امتيازات تشجِّع ولدها على المضيِّ فيما هو فيه وتحذِّره من الفشل حتَّى يواصل هو وزملاؤه كتابة الجداريات، تظهر الأمُّ على مستوى من الوعي كبير.

اللُّغة: جاءت بسيطة شعرية تنزع في بعض الأحيان نحو العامية كقول الأم لابنها وهي تحثُّه على الزَّواج "إلى متى تظلُّ وحيدا؟ راك كليت أولادك في كرشك". (17)

الرَّاوي: جاء علينا وهو الصُّحفي ابن الشَّهيد، فقد قام بمهمَّة قصِّ الأحداث والتَّعليق عليها. (18)

الحوار: جاء داخليا في أكثر من موقع والشَّخصية الرَّئيسية تحدِّث نفسها بعد أن سيطر عليها شعور الإحباط واليأس وجاء الحوار الخارجي قليل وكان بين الصُّحفي وأمِّه. (19)

ملاحظة: المطلوب الاطِّلاع على:

1. سيِّدة المقام للأعرج واسيني.
2. التَّوغُّل في أعماق المتاهة لغزالة زهرة.
3. آخر القعدات لمرزاق بقطاش.
4. كلمات تحت الشَّمس لزهرة الرِّيف.
5. الظِّلال الممتدَّة لزهور ونِّيسي.

الإحالات:

1. عبد الله الركيبي، القصَّة الجزائرية القصيرة، الدَّار العربية للكتاب، 1977م، ص 133.
2. شريبط أحمد شريبط، تطوُّر البنية الفنية في القصَّة الجزائرية المعاصرة، دار القصبة للنَّشر، الجزائر، 2009م، ص 23.
3. جميل شاكر، سمير المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصَّة، الدَّار التُّونسية للنَّشر، 1985م، ص 87.
4. عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السَّردي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985م، ص 126.
5. مُحَمَّد بوعزة، تحليل النَّصّ السَّردي، الدَّار العربية للعلوم، 2010م، ص 58.
6. عزَّ الدِّين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، 1978م، ص 167.
7. أحمد طالب، الالتزام في القصَّة القصيرة الجزائرية المعاصرة (1931م – 1979م)، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 207.
8. علي عبد الجليل، فنُّ كتابة القصَّة القصيرة، دار أسامة للنَّشر والتَّوزيع، الأردن، 2005م، ص 65.
9. غزالة زهرة، التَّوغُّل في أعماق المتاهة، منشورات التَّبيين الجاحظية، الجزائر، 1999م.
10. المصدر نفسه، ص 29-30.
11. المصدر نفسه، ص 32.
12. المصدر نفسه، ص 34.
13. مرزاق بقطاش، آخر القعدات، الفضاء الحر، 2012م.
14. زهرة الرِّيف، كلمات تحت الشَّمس، منشورات الجاحظية، 1999م.
15. المصدر نفسه، ص 51.
16. المصدر نفسه، ص 53.
17. المصدر نفسه، ص 51-52-53.
18. المصدر نفسه، ص 55.